

أزهار الشر للشاعر بودليّر

بقلم

الأستاذ عبد الرحمن صرقي

جليس ، فضلا عما آل اليه من زواجه الأول من أراض وضياح . وقد كان زواجه من الآنسة كارولين بعد خمس سنين من وفاة زوجته الأولى وبعد اعتزاله الخدمة . ولا شك أن هذا الذي كان عليه من بسطة الحال ووفرة المال ورخاوة العيش وما يتصل بذلك من المظاهر ، قد غلب على سائر الاعتبارات عند الفتاة ، فانتهى الأمر بها إلى قبول هذا الزواج الذي يكفل لها حياة كريمة ، ولا سيما وهي يتيمة مات عنها أبوها الضابط المنفى ، بعد سنوات قلائل من ميلادها في لندن من أم إنجليزية ، فكفلها صديق من أصدقاء أبيها كانت له دار كبيرة في باريس : فاتخذت الصبية رفيقة لكريماته ، وقد تتابعت السنون حتى بلغت من العمر الخامسة والعشرين ، ولم يتقدم لها خاطب لانصراف الخاطبين إلى من يتوفر لهم المال ، وإن قلّ حظهم من اللطافة والركة والجمال .

ولقد مات الزوج الشيخ - والد الشاعر - في العاشر من يناير عام ١٨٢٧ ، ولم يستوف ولدّه السادسة من عمره . وكان الصبي الذي بدأ يعرف لأبيه شدة التعلق به والعطف عليه ، يبادلّه الشعور ويكن له من مشاعر الإجلال والمحبة البارة ، ما يشبه العبادة

شارل بيير بودليّر من شعراء فرنسا المعدادين ، ويعدّه النقاد بعد مرور كل هذه السنين ، أحدث الشعراء المحدثين ، سيان في روح معناه أو في قالب مبناه . ولما كان بودليّر من شعراء ذلك الطراز الذي لا يمكن التفرقة بين مصنفاته وحياته ، فلا مندوحة هنا من تناول حياته بشيء من التفصيل الذي لا غناء عنه في إلقاء الضوء على مصنفاته .

كان ميلاد شارل بودليّر في التاسع من شهر أبريل عام ١٨٢١ في باريس ، ثمرة قران غير متكافئ من حيث السن ، إذ كان والده جوزيف فرانسوا بودليّر أرمل كهلاً في الستين من عمره ، حين تزوج في التاسع من سبتمبر عام ١٨١٩ الآنسة « كارولين ارشمبوت ديفاي Caroline Archimbant-Dufays » وهي تصغره بنحو خمس وثلاثين سنة . وكان فرانسوا بودليّر أول أمره من رجال التعليم المتأدين ، وظل طوال حياته من محبّي الفنون . وكان التصوير هوايته المفضلة ، وكان مشاركاً في الآراء الثورية عند وقوع الثورة الفرنسية ، وأصبح في عهد نابليون من كبار الموظفين الإداريين في مجلس الشيوخ ، وظل في منصبه بعد عودة الملكية ، فلما اعتزل الخدمة ، كان له معاش

أمه إلى بنسيون ديلورم: Pension Delorme في ليون تمهيداً لدخول الكلية الملكية فيها ، وفي العام التالي ألحقه بالقسم الداخلي بالكلية . وهنا رانت على نفس الصبي ظلالٌ من الأسى مظلمة ثقيلة ، واستبد به — على حد قوله — شعورٌ بأنه « مقضى عليه أن يعيش مستوحداً مقطوعاً عن أهله طول دهره » .

وفي عام ١٨٣٦ انتقل الكولونيل أوبيك إلى هيئة أركان الحرب بباريس ، وفي باريس ألحق بودلير بكلية « لويس ليجراند Collège Louis-le-Grand » حيث أقبل على الدرس والتحصيل وخاصة في المواد اللغوية والأدبية ، وقد كان المجتهد في مباراة عامة في الشعر اللاتيني ، كما لوحظ عليه كثرة الاستشهاد من شعر الشعارين فيكتور هيجو وتيوفيل جوتييه ، ومن ناحية أخرى كان وهو الفتى المراهق يقرأ في الخفاء — كما جاء على لسانه فيما بعد — قصة « اللذة » التي يصف فيها مؤلفها « سانت بييف Sainte-Beuve » حياته الغرامية ، فضلاً عن قصة « الراهبة » للفيلسوف الأديب ديدرو Diderot ، وهذا جميعه إلى جانب قراءته خواطر « بسكال Pascal » الروحية التي تعكس حيرة عقله في أمور الدين :

ولقد فوجئت أمه حين تلقى زوجها في شهر أبريل ١٨٣٩ خبر طرد الفتى من الكلية لأسباب ليست بالواضحة الجلية . بيد أن بودلير جاز على كل حال امتحان البكالوريا ، فأراد زوج أمه وكان قد ارتقى إلى رتبة مارشال توجيهه الوجهة التي يرى له فيها المستقبل الزاهر الثابت ، ولكن الفتى كان مصمماً على خلافه ، فقد أجمع العزم على ألا يطاوع غير شيطانه ، وأعلن أنه اختار لنفسه ، دون سائر المهن القويمة المكيئة ، مهنة الأدب وهي مهنة غير مضمونة ولا مأمونة . فقامت من جراء ذلك بين الفتى والجنرال — زوج أمه — المشادة إثر المشادة ، حتى قيل إنها انتهت إلى حد التهجم باليد على الفتى . وأخيراً

الحارة . فلا غرو من بعده أن يجد الصبي كل عزائه في أمه ، التي أصبحت كل شيء عنده ، كما كان هو كل شيء عندها . وقد بلغ من سعادة الصبي هذه الفترة أن ظل يذكرها حتى لتنجده بعد ثلاثين سنة في خطاب له إلى أمه يشير لتلك الأيام بقوله « تلك كانت أيام نعيمى » . بيد أنه في الثامن من نوفمبر عام ١٨٢٨ بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على وفاة أبيه ، أصبحت أمه الشابة زوجة الضابط الشاب « جاك أوبيك Aupick Jacques » الذي يمت مثلها إلى ارومة إنجليزية من ناحية أمه . ولم يكن الصبي يتوقع أن يشاركه في قلب أمه أحد بعد وفاة أبيه ، فانطوت نفسه الصغيرة الغريزة على ما يشبه خيبة الرجاء في النساء ، فضلاً عن الشعور بالحزاة والنفور من ذلك الرجل المزاحم الغريم الذي غلبه على أمه حتى كادت — فيما يصوره له وهم — تؤثر على وجود ولدها عديمه . والقارئ يجد لا محالة صدى هذا الشعور المكبوت في مقتتح ديوان بودلير « أزاهر الشر » في القصيدة الأولى التي يصف ميلاد الشاعر تحت عنوانها الساخر « مباركة Bénédiction » :

« لما حُسم القضاء الذي لا راد لحكمه .

وخرج الشاعر إلى هذه الدنيا العانية الكلية برغمه .
« ريعت أمه وأخرجها السخط عن طبيعتها .
فلوحت للسماء بقبضتها ، والسماء رائيةً لنكبتها .
ولكن ماذا عسى يملك الصبي الصغير إلا أن يظهر الامتثال للأمر الواقع شأن العاجز المغلوب على أمره أمام زوج أمه . ولم يلبث القومندان أوبيك أن استدعى في مارس ١٨٣٠ فيمن استدعوا للحملة الفرنسية على الجزائر ، وبعد عودته كانت ترقيته إلى رئيس أركان حرب في مدينة ليون ، فزحت الأسرة من باريس إلى تلك المدينة التجارية الصناعية العظيمة التي يحجم عليها الضباب ودخان الفحم .

وكان بودلير قد بلغ وقتئذ الحادية عشرة (عام ١٨٣٢) وحلّ أوان دخوله المدرسة فأسلمه زوج

تشفعت الأم بأن الفتى فى الثامنة عشرة وما يزال فى الوقت فسحة حتى بلوغه سن الرشد ، وأنه من المستحسن أن تطلق له منذ الآن بعض الحرية قبل أن يصبح مطلقاً التصرف فى ماله ومستأنف حاله ومآله .

وانطلق بودلير حراً طليقاً يحيا فى باريس حياة أهل الفن ، ويعقد صداقاته الأدبية الأولى ويقرأ على أصدقائه من شباب الأدباء فى الحى اللاتينى وغيرهم ما ينظم من مقطوعات غضة قوية ، مستغربة عصبية تم على ما خرج به إلى الدنيا شاعرنا الشاب من العقد النفسية ، وسوء الظن بالطبيعة البشرية وعدم المبالاة بالعرف والمواضعات الأخلاقية . ونجد الشواهد على ذلك فى قصيدته عن سارة « اليهودية الحولاء » التى نشرها فى مجلة فرنسا الفتاة « La jeune France » وكان بودلير حين نظمها فى العشرين أو نحوها :

ليست من الغانيات الناهيات خليلتي

وإنما عن نفس أخذت فتنها كما تؤخذ العارية
تبدو فتفتحمها عيون المستخفين وهى غير مبالية
ولا يزهو لها جمال إلا فى مهجتي الغافية

من أجل حذاء تلبسه فى قدمها باعت روحها
وإن الله الرحيم ليستهزئ بى لو أنى استهزأت بها
واتخذت بجانب هذه المفصوحة سمت التورع
وتظاهرت بالترفع
وأنا مثلاً أبيع فكرى راجياً أن أكون مؤلفاً

والأدهى فى أمرها جُمُتُها المستعارة
لقد انحسر شعرها الفاحم الجميل عن بياض قفاها
فلم يكن ذلك بمناع محبا
أن يهوى بالقبيل على جبينها الأملس كإهاب الأبرص

هى حولاء . ولكن نظرتها الغريبة الحالكة
تحت سواد أهدابها الوطفاء كأهداب الملائكة

جعلت جميع الأعين الفتاة النجلاء
لا تعدل عندى هذه العين اليهودية المكحولة
الحولاء

صغيرة لا تتجاوز العشرين ومع هذا فإن ثديها
مسترخيان يتدليان على جنبها
وكثيراً ما خلا من درهم كفها
فلم تجد ما تحك به جلدتها وتذلك كتفها

والمسكينة عند الانفعال مقطوعة النفس مبهورة
بأخذها الفواق وتكظ صدرها المحشجة
وأكبر ظنى ، وأنا اسمع شهقاتها المحشجة
أنها نزلت ضيفاً على المستشفى مراراً غير قليلة

وننتقل إلى قصيدته التى نشرها فى « صور باريسية »
« Tableaux Parisiens » يخاطب بها الصبية المتسولة
ذات الشعر الأحمر A une mendiante rousse وهى
بعينها الصبية التى نظم فيها صديقه تيودوردى بانفيل
Théodore de Banville منظومة بعنوان « مقطوعات
إلى مغنية الشوارع الصغيرة » والتى ترك لنا الرسام
ديروى Deroy صورتها فى لوحة بعنوان « عازفة
الجيتار الصغيرة » ومما يلاحظ فى القصيدتين صدق
ذلك الإشفاق الرومانتيكى - ومن أشهر أمثله قصة
غادة الكاميليا لإسكندر ديماس الابن - ذلك الإشفاق
الذى كان ينجح إلى استدرار العطف ورد الاعتبار على
الفتيات الساقطات من بنات الهوى .

ولقد كان من جراء هذا المسلك المستهتر الذى
ظهرت من الفتى بوادره أن انزعج الجنرال أوبيك
زوج الأم وخشى مغبة هذه الشطحات وما يمكن أن
تؤدى إليه من سوء المقالة التى قد تمس من بعيد
ما بلغ من رتبة رفيعة وجاه المنصب فعمل على عقد

اجتماع للأسرة ، فاتفق الرأي على أن يرحل الفتى بعيداً عن عشاء السوء في رحلة طويلة .

وفي السابع من مايو عام ١٨٤١ أقطع من ميناء بوردو مركب شراع يحمل اسم بحار الجنوب وكان على ظهره شاعرنا الفتى « بودليير » وكان قبطان المركب صديقاً قديماً لزوج أمه وكان المركب قاصداً إلى الهند وعلى وجه التخصيص كلكتا ولكن الفتى لم يمس عليه في المركب يوم حتى ضاق بهذه الرحلة وركبه الملل واستحوذت عليه الكتابة فاعتزل منطوياً على نفسه وقد عاج المركب في طريقه جنوباً على جزائر الرأس الأخضر المحاذية للشاطئ الإفريقي عند السنغال ثم تجاوز خط الاستواء حيث كانت حرارة الجو مزهقة ترهق الأنفاس ولعله كان في هذه الأثناء ما وقع للقبطان من إطلاق بندقيته على طير عظيم من طيور البحر الجنوبية كان محلقاً فوق صواري المركب فهوى الطائر على ظهر المركب حياً إذ أصابه الرصاص في جناحه فشد الملاحون ساقه بنحيط طويل وتركوا الطائر المحروم من الفضاء يمشى في أرض السفينة على قدميه متخبطاً في مشيته الخرقاء على صورة جعلته ملهى وعرضة للاستهزاء مما ترك أثره في نفس الشاعر ، فنظم بعد سنوات من عودته قصيدته « القطرس » .

كان الملاحون كثيراً ما يلهون فيقتنصون طيور البحر العظام وهي مسترسلة كرفيق الطريق مع السفينة المنسابة فوق لجج الحِضم السحب

...

فيا هو إلا أن هوى القطرس على أرض المركب حتى رأينا هذا الملك من ملوك الجوّاء في حالة شوهاء خرقاء وأجنحته البيض الطوال مسلوحة الكبرياء

بجرها إلى جانبه كالمجاديف

...

ذلكم راكب الهواء ، ما أسمح ما صار إليه ، وما أوهنته

ذاك الذي كان عظيم الروعة ظاهر الأبهة قد أصبح وليس أقبح من منظره ولا أدعى منه للسخرية !

والقوم من حوله ، بعضهم يستفز بقصبة التبغ منقاره

والبعض يتعارج محاكياً هذا الكسيح وقد كان منذ لحظة عارجاً محلقاً

...

كذلك الشاعر ، إنه أشبه الأحياء بأمر الجوّاء يقتحم العواصم ولا يبالي الرماة وهوى أوج السماء ولكنه على الأرض غيره في السماء ، غريب طريد ، موضع إزراء وعرضة استهزاء إنه متعثر الخطو ، لأن جناحيه الجبارين يعوقانه عن المشي »

ولما بلغت السفينة أقصى الجنوب عند رأس الرجاء الصالح هبت عاصفة هوجاء ، واعتلجت الأمواج ، فاضطربت بركابها السفينة وانقصفت بعض صواريتها وتمزق شراع من أشرعتها ، ومع ذلك ظل شاعرنا الفتى على رباطة جأشه وكأبته ، حتى إنه لم يرو شيئاً من هذا عند عودته ، ومضت السفينة في طريقها حتى دخلت المحيط الهندي ، وتجاوزت مدغشقر ، وألقت مراسيها في جزيرة موريس التي كانت تابعة لفرنسا قبل وقوعها في حوزة إنجلترا في أثناء الحروب النابوليونية ، وكان دخول السفينة في مينائها التي لم تزل تحمل اسم « ميناء لويس » في الأول من شهر سبتمبر عام ١٨٤١ بعد ثلاثة وثمانين يوماً من السفر بحراً . وبينما كان العمل جارياً في إصلاح السفينة ،

للممثل صغيرة في طريقه ، وهنا وقع نظره بين من
ظهروا على خشبة المسرح على جارية مولدة كانت تقوم
بدور الخادمة ، وكانت لا تشبه من معها من الممثلات
لما أوتيت من المبالغة في سائر تقاطيع جسدها ، وفي
ذلك التموج الإيقاعي في مشيتها . وكانت هذه هي
« زهرة الشر » « جان ديفال » التي نظم فيها معظم
روائع الأشعار التي ظهرت فيما بعد في ديوانه الذي
أسماه « أزاهير الشر » :

من رآك تخطرين - ياحلوة السجية
يحسبك أفعى ترقصين على طرف العُصية

وكان بودلير كما تقدم بنا ، قد تسلم عند بلوغه
سن الرشد في أبريل عام ١٨٤٢ ميراثه عن أبيه نقداً
فلم يمس على حياته المسرقة في باريس عامان ، حتى
كان قد أتى على نصف الميراث .

وذلك أن بودلير كان منذ أن لقي « جان ديفال »
قد رغب إليها في ترك المسرح لتكون له خالصة .
واتخذ لها سكناً أنيقاً في الشارع المجاور للفندق الفاخر
المعروف باسم لوزون أو بيمودان الذي كان من
نزلائه . ومن ثمة تضاعفت نفقاته ، وأخذت المرأة
فوق ذلك تبالغ في مطالبها وهو لا يستطيع أن يرد لها
طلباً من فرد تعلقه بحبها وافتتانه بجسدها ووقوعه في
جبال سحرها مع علمه بمدى جهلها وخطورها ، ومع
شعوره في قربها بالهاوية التي يتردى في أغوارها .

إن زمام أموره في يده بل في يدها وهيئات الخلاص
له من سلطان فتنها :

« في غلائلها المهفافة المتلاثلة

تمشي مشيتها فتحسبها راقصة

كتلكم الأفاعي الطويلة المائسة

يرقصها على أطراف العصي حواة المعابد المقدسة

أقام بودلير وسائر من كانوا على ظهر السفينة في
الفندق الوحيد بالمدينة ، وهنا في هذا الجو الدقيء قضى
الساعات متفتر الأوصال تحت ظلال النخيل وقد توثقت
الألفة بينه وبين أسرة « بواجار Bragard » التي كان
من نصيبها إحدى قصائده « A une dame créole »
ولقد كان مقام الشاعر في الجزيرة نحو ثلاثة أسابيع
لم يسعه بعدها الصبر على البعد عن باريس ، فأعلن
إلى القبطان تصميمه على العودة ، فلم ير القبطان
فائدة من مراجعته ، فاتفق معه على أن يصحبه حتى
جزير قر بوريون « Bourbon » وهي اليوم مشهورة باسم
رينون « Réunion » وهناك أسامه إلى عناية قبطان
كانت سفينته السيد « Alcide » قافلة إلى فرنسا .

ولابد هنا من التنبيه إلى أن هذه الرحلة الشرقية
القصيرة في المحيط الهندي تركت في نفس الشاعر من حيث
لا يشعر انطباعات عميقة الأثر بعيدة الأهمية ، ما لبثت
أن دخلت على شعره صورها ، وساورت خياله
أخيلتها ، وغلبت على روحه الحارة الغريبة الحاملة
روحها .

وعاد الشاعر من رحلته الشرقية القصيرة إلى
باريس في فبراير عام ١٨٤٢ فلم تمض أسابيع على
مقامه مع أمه وزوجها ، حتى أخذ يثقل عليه جو
الاستنكار وعدم الملاءمة الذي يعيش فيه ، واتفق
بلوغه سن الرشد في أبريل من ذلك العام ، فانتظر
تسوية ميراثه ، وفارق دار الأسرة في يونيو إلى غير
رجعة . ولم يتخذ له في هذه المرة سكناً في الحي
اللاتيني ، إذ كان في سعة بما تسلمه من نصيبه من
الميراث نقداً ، فأقام في فندق من الفنادق التي ينزلها
هواة الطرفة والظهور ، وصار يتردد على المقاهي
الأنيقة التي كانت ملتقى أهل النظر والأناقة من
الشعراء والكتاب الإبداعيين . وقد شاعت المصادفة
في ذلك الحين أن يعرج في إحدى الليالي على دار

وهى تارة كالرمال الموحشة أو قبة السماء على الصحراء

وكلاهما لا يحس ما يلقى ابن آدم من برحاء
ثم هى كغوارب الموج المتدفة المطردة فى صفحة
الدأماء

حين تضطجع مبكرة متمددة فى غير اكتراث

وفى عينها البراقين جاذبية كأنهما من معادن
سحرية

وفى ذاتها يأتلف الملاك الكريم الطاهر
بأبى الهول ، الحيوان الطائر ، ذى اللغز القديم
وكل شئ* فيها ذهب وفولاذ وبريق وجوهر
وعلى تلك الذات البرية الرمزية يشرف طوال
الحياة

كما يشرف الكوكب فى القلاة مهدر الضياء

ذلكم الجلال الخامد فى المرأة العقيم

ولقد بادرت أم بودلير وزوجها قبل أن يأتى
الفنى الشاعر على بقية ميراثه إلى رفع الأمر للقضاء
فأمر بوضع البقية الباقية من رأس المال تحت إدارة
أحد مسجلى العقود من أصدقاء الأشرة فكان يصرف
للشاعر ما يقيم به أوده ويفى بالتكاليف الضرورية
لحياته اليومية . فلم يبق أمام شاعرنا الهاوى إلا احتراف
الكتابة لكسب معاشه . ولما كانت له منذ حدثه
الأولى فى منزل أبيه ألفة باللوحات الفنية وقد لازمه
هذا الحب للتصاوير طول صباه ، ثم كانت بعد ذلك
معرفته للرسام « ديروى » Deroy وتردده معه على
مراسم الرسامين والمثاليين وغشيانه فى الحى اللاتينى
للمقاهى التى تغص بالنقاد والفنانين ، فلا عجب إذا
رأيناه يسترعى أنظار أهل المعرفة حين طرق النقد الفنى
بما ينشر عن « معرض ١٨٤٥ » « Le Salon de 1845 »
من مقالات تمتاز بالأسلوب التين القوى المنمق
الطلى معاً ، كما تمتاز بما تتضمنته من أفكار جريئة

وحصيفة عن أعمال الفنانين . ثم أعقب ذلك بعد عام
بمقالات عن « معرض ١٨٤٦ » تفوق فيها على نفسه ،
فضلاً عما دججه من الفصول الأدبية فى شتى الموضوعات
ومنها قصة « فانفارلو » La Fanfarlo التى ظهرت
فى يناير سنة ١٨٤٧ .

وعلى حين فجأة انقطع سياق هذا النشاط المطرد
الذى كان ديدنه فى تلك السنوات وكان السبب اشتغاله
عن الأدب بالسياسة التى كان حتى هذه الساعة غريباً
عنها لا يفكر فيها . فلقد جرفه ذلك التيار الفوار ،
الجياش بالانفعالات والأفكار الذى أدى إلى ثورة
فبراير ١٨٤٨ . ولم يكن لشاعرنا عن ذلك مندوحة ،
فقد كان يسكن وسط حي الطلبة فى باريس ، ويتردد
على مقاهى الضفة اليسرى وكانت تربطه أوثق الصلات
بالكثير من الكتاب والشعراء من الحزب الاشتراكى .
بيد أنه لا يستبعد أن يكون هنالك فى الوعى الباطن
سبب كامن بعث الشاعر إلى المشاركة فى الثورة ضد
الملكية ، هو كراهته لأحد قوادها ، وهو زوج أمه
الجنرال أوبيك . ويرجح ذلك ما زعمه بعضهم من أنه رأى
الشاعر وفى يده بندقية جديدة وهو يصيح وسط جلبة
الثوار « هيا نعدم بالرضاص الجنرال أوبيك » . وأياً
كانت حقيقة الحال فإن بودلير لم يلبث أن عاد إلى
الاشتغال بالشعر والأدب والنقد الفنى والاستغراق فيها
دون السياسة كسابق عهده .

وكان بودلير قد أخذ يقرأ منذ عام ١٨٤٦ ما كان
يظهر فى الصحف والمجلات الفرنسية من تراجم لقصص
الشاعر الأمريكى المعاصر « أدجار آلان بو »
Edgard Allan Poe . وما كان يخلعه الكاتبون على
مؤلفها من عبارات التقدير والإطراء . وكان بودلير
قد تعلم الإنجليزية منذ طفولته ، ولما كان ما قرأه للشاعر
الأمريكى فى تلك السنة قد حرك نفسه من أغوارها ،
فقد لجأ بودلير إلى بعض الأمريكان المقيمين فى باريس
لإعارته مجموعات الصحف والمجلات التى كان « بو » Poe

يدبرها أو يكتب فيها إذ لم تكن أعماله وفنته مجموعة في كتاب . وكم كانت دهشة بودلير عظيمة حين وجد للأديب الأمريكي قصائد وقصصاً يؤكد بودلير أنها سبق أن وردت على خاطره ، ولكن في صورة مختلطة مشوشة مبهمه ، على حين أحسن ادجار بو نظمها والبلوغ بها إلى حد الكمال . ولم يلبث أن عكف الشاعر الفرنسي على ترجمة ما يقع تحت يده من مؤلفات الشاعر الأمريكي . وكان أول ما نشره من تراجمه في مايو عام ١٨٤٨ ثم ظلت هذه التراجم شغله الشاغل سبعة عشر عاماً ، حتى قبيل وفاته .

وفي هذه الأثناء انصرف قلب شاعرنا عن معبودته « فينوس السوداء » كما كان يسمى جان ديفال ، وكانت مع الإدمان في الشراب قد أدركها الكبر ، وكشف جسمها ، وذهب غيدها وازدادت رذيلة وسوقية ، فهجرها في أوائل عام ١٨٥٢ طاوياً هذه الصفحة السوداء . وكانت نفسه بعدها قد أخذت تحن إلى حب أسمى وأرفع فتعلق قلبه بالحب العذرى لواحدة أو أكثر لحظات قصارا في غضون ذلك العام وفي أواخره كان قد هام قلبه أشد الهيام بمعبودة جديدة في شخص الغانية « مدام سباتيه Mme Sabatier » من أشهر الحسان الغواني في أواسط القرن التاسع عشر ، وهي معروفة بمجلسها الذي كان يضم نخبة من الأدباء والفنانين في عصرها حيث كانوا يسمونها « الرئيسة la Présidente » وكانت تستبى جلساءها بإشراف طلعها ومخايل عزائها وطرب غنائها ورنه ضحكاتها وفيض طبيبتها . وفي هذه المعبودة الجديدة نظم بودلير مقطوعات عديدة من أبدع الشعر :

« أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء

ودموع الغل المريرة ، وتربص الثأر في الخفاء

وقد صرح الشر ، وبات فينا صاحب النهى والأمر ؟

أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء ؟

أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم
وأسوار الملاجئ العالية الشاحبة البياض
يدب بينها المرضى يجرون القدم ؟

أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم ؟
أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول
وخشية المشيب ورهبة الأفول

وذلة الرضا بالوفاء دون الهوى ؟

أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول ؟
أيها الملاك السابح في السعادة والسرور والنور
في جسمك الساحر براء للذنف المسحور
ولكني يا ملاكي لا أسألك إلا الدعاء المبرور
أيها الملاك السابح في السعادة والنور

وهذه المقطوعة وأمثالها مما نظمه بودلير في معبودته الثانية « فينوس البيضاء » ، تقف ولا شك إلى جانب روائع أشعاره في المعبودة الأولى « فينوس السوداء » ، بلا فارق إلا ما يتعلق بالفارق بين المعبودتين ، وهو عند بودلير كالفارق بين الشيطان والملاك ، وبين الجسد والروح ، وبين مصاصة الدماء والصديقة الكاملة الوفاء ، وإلى هذا الملاك الكريم والروح الطاهرة والصديقة الوفية بعث الشاعر حين ظهور ديوانه في يولية سنة ١٨٥٧ بنسخة منه يذكر في إهداءها ما يميظ اللثام عما يمكنه من حب . فكان من سرعة استجابتها ما صدم الشاعر فأجفل حسه ، وانكمش منظوياً على نفسه .

لقد أفاق الشاعر بعد هيام خمس سنوات من حلمه العاطفي ، حين تبين له أن حلمه صائر إلى حقيقة كغيرها من الحقائق .

وأخفقت مدام سباتيه في تسكين روح الشاعر ورد الحلم إليه ، وقنعت في النهاية أي منذ أواخر عام ١٨٥٧ بعد أشهر قلائل من طبع ديوانه أن تكون الصديقة فحسب . وقد ظلت على مودتها له طول حياته وكانت في مرض موته أحرص النساء بعد أمه على عيادته .

الألماني « ريتشارد فاغر وأوبرا تانهاوزر Richard Wagner et Tannhauser » كما نشر فصولاً في النقد الأدبي نذكر منها دراسة عن الروائي جوستان فلوير Gustave Flaubert بمناسبة ظهور آيته الكبرى في قصص التحليل النفسي « مدام بوفاري » ودراسة أخرى عن صديقه الكبير الشاعر « تيوفيل جوثييه Théophile Gautier » كما أخذ في نشر ترجماته عن الإنجليزية لقصص معاصره الأمريكي إدجار إلان بو . وهنا كانت شهرة بودلير قد بلغت ذروتها . ولكن القدر أبي إلا أن يغلبه على أمره ، فقد أصيبت معشوقته القديمة جان ديفال بالشلل من جراء استهتارها في الشرب ، فعز عليه أن يتخلى عنها وهي في حضيض الهاوية ، ونقلها إلى إحدى المصحات الخاصة ، وأجرى عليها رزقاً يفي بحاجاتها هي وأخيها العاطل فكان من ذلك أن أخذت موارده القليلة في النضوب على الرغم من تحامله على نفسه بالعمل المتصل ، وأصبحت حالته البدنية والعقلية مثاراً للقلق الشديد ، وكثرت عليه نوبات الدوار ، وحل به الإعياء ولازمه الأرق ، وأحس بالجنون يطيف به طائفه ، وجعل خاطر الانتحار يراوده ، فرأى أن يفر بنفسه من باريس ، فسافر إلى بلجيكا في أبريل عام ١٨٦٤ على أمل موأنة الحظ له في تلك البلاد الناهضة ، واستعد لإلقاء سلسلة من المحاضرات في مدنها الكبرى ، فلم يلبث جمهور السامعين أن انفض من حوله للبون الشاسع بين آرائه وآرائهم في كل شيء . فزادت متاعبه المالية ، وساءت معها صحته وحالته المعنوية . واتفق في شهر مارس أن ذهب مع بعض الأصدقاء إلى مدينة نامور لمطالعة آيات الفن في كنيسها الكبرى ، فإذا به يهوى على الأرض فنقلوه في اليوم التالي إلى بروكسل ، وفي ٣٠ مارس ظهرت إصابته بالفالج في الشقة اليسرى ، ثم تلا ذلك اعتقال لسانه ، ولكن المسكين احتفظ بيقظة ذهنه . وقد بادرت إليه

وكان بودلير قبل فشله في حبه الروحي قد أراحه الله من زوج أمه البغيض إلى نفسه وكانت وفاته في الثامن عشر من أبريل عام ١٨٥٧ ، أي قبيل ظهور ديوانه « أزاهير الشر » فاتصلت العلاقات بين الشاعر وأمه ، وكانت قد اتخذت لها سكناً متواضعاً في شمال فرنسا في مدينة هونفلير الساحلية ، فأخذ يتردد عليها في الحين بعد الحين .

ولم يلبث بودلير بعد فشله في حبه الروحي أن عاد سيرته الأولى ، إلى المباءة الساقطة إلى الآفة المألوفة ، إلى « جان ديفال » العجوز البهيمية السكيرة الشريرة :

أيتها الداخلة في قلبي كطعنة سكين
المقبلة في قوة كعصبة من الشباطين
المفتونة المتبرجة

اتخذت سريرها وملكها في عقل الراغم المسكين

...

أيتها الساقطة التي أنا موثق بها
كالسجين بأغلاله ، ورهين المقامرة بالمقامرة
والسكير بزجاجة الشراب والديدان بالجيفة
لعينة ، لعينة أنت

ناشدت الخنجر القاطع أن يمكنني من حربي
وهتفت بالسم الزعاف أن يغيث نذالتي
فأزري بي السم والخنجر ، وناجيتي :
لست أهلاً لإعتاقلك من أسرك المنكر

...

يا مافون - لو عملنا على موتها
وإنقاذك من سلطانها
لأحييت بحرارة قبلا تلك
جثة معذبك ومستنزفة دمك

وكان بودلير في هذه الآونة مواظباً على العمل فقد نشر جملة من الشعر المشور « Petits poèmes en prose » كما نشر فصولاً من النقد الفني تناول في بعضها الموسيقى

أزاهير الشر

إن الوصف الغالب على بودلير عند الأكثرين هو الشاعر ، فعلى شعره تقوم شهرته ، وديوانه أزاهير الشر « معدود بين سائر أعماله وآثاره ، عمله الجوهري وأثره الأساسي . فهذه الأشعار منذ ظهرت هي المقدمة في الاعتبار ، وإن سبقتها في الظهور للجمهور مقالاته الحسيفة الأصلية عن معارض الصور ، وترجماته المطابقة نصاً ، الصادقة روحاً ، لقصص « إدجار بو » أو كما يسميه « سينده المرهوب ، وأميره المحجوب » .

كلمة تاريخية عن الديوان

ويحسن قبل البدء في الكلام على هذا الديوان « أزاهير الشر » التنبيه إلى أن بعض روائعه نُظمت قبل تاريخ صدوره للمرة الأولى بنحو أربعة عشر عاماً . ولقد ذكر بعض أخصائيه بلهجة التوكيد أنه كان قد اجتمع لدى الشاعر منذ عام ١٨٤٢ نحو خمس عشرة مقطوعة مما يُعَدُّ اليوم من أروع مقطوعات الديوان وأغناها معنى وأخصبها دلالة . وكان الشاعر لا ينشر منها إلا ما يستوفي تنقيحه وتحريه والبلوغ به إلى الحد الذي يرضاه : وذلك في الحين بعد الحين ، فرادى أو مجموعات صغيرة . وكان أول ما نشره منها في مجلة الفنان في الخامس والعشرين من مايو عام ١٨٤٥ .

وقد أخذت بعض مقطوعات شاعرنا طريقها إلى النشر في مختلف الجلات . وفي عام ١٨٤٦ ظهر إعلان عن وشك صدور الديوان تحت عنوان « الأغراف Lles Limbes » ثم تكرر الإعلان تحت عنوان آخر للديوان عام ١٨٤٩ ، ولكن بودلير ظل متردداً في اختيار عنوان ديوانه ، إلى أن وافق هواه أخيراً اقترح بتسميته « أزاهير الشر » . ولقد ورد في خطاب للشاعر نفسه إلى أمه عام ١٨٥٠ ما يفهم منه أنه انتهى

أمه ، للعناية به وللقيام على أمره ثم نقلته في شهر يوليو إلى باريس لعلاجها عند أحد الأطباء دون جدوى ، فقد ظل مفلوجاً مجر نصفه جراً ، كما بقي معتقل اللسان لا يستطيع نطقاً ، وكان كلُّ همّة تلميع أظافره أو تسريح طرفه في الحديقة حيث تتلوى شجيرات الصبار كالأخطبوط . وفي ربيع العام التالي اشتد به المرض ، وبعد احتضار طويل غير عنيف ، أدركته المنية وهو بين ذراعي أمه في آخر يوم من أيام أغسطس عام ١٨٦٧ ، ولم يتجاوز السادسة والأربعين من عمره .

آثار بودلير

على أثر وفاة بودلير جمع ناشره « Malassis » مؤلفاته في طبعة وصفت بالنهاية ، وهي تشمل على أربعة مجلدات ، المجلد الأول « أزاهير الشر » « Fleurs du Mal » وهو مجموعة أشعاره التي تعد أشهر آثاره ، والمجلد الثاني « من الطرائف الجمالية الفنية Curiositts esthétiques » والمجلد الثالث « الفن الرومانتيكي l'art romantique » والمجلد الرابع « مقطوعات من الشعر المنشور » « Petits poèmes en prose » ثم استكملت تلك الطبعة النهائية بإعادة طبع ترجمته لقصص إدجار ألان بو « Edgar Allan Poe » أما القصائد المحكوم عليها فلم تظهر في تلك الطبعة ، وإنما نُشرت في طبعة من القطع نفسه في بلجيكا . وفي عام ١٨٧٢ أخرج الناشر نفسه مطبوعاً أخيراً بعنوان (شارل بودلير : ذكرياته ورسائله وترجمة حياته Charles Baudelaire, (Souvenirs, correspondance biographie) . وفي عام ١٨٨٧ جمع أوجين كريبيه « Eugène Crepet » كتابات ورسائل لبودلير لم يسبق نشرها . يضاف إلى ذلك أكثر من لوحة وصورة فوتوغرافية تمثل لنا الشاعر في أكثر من مرحلة من مراحل حياته .

من إعداد ديوان شعره ، وأن قيام بعض العقبات هو وحده السبب في تأخر نشره . وفي يولية عام ١٨٥٥ نشرت مجلة « العالمين » ، وهى من أمهات المجلات العالمية وقتئذ ثمان عشرة مقطوعة حديثة للشاعر تحت عنوان واحد شامل « أزاهير الشر » ، وتوخت المحلة الاتصال من مسئوليتها لدى القراء عن نشر الأشعار التى رأتها جديدة عليهم ، وجديرة بأن تروى بعضهم بأن قدمت بين يديها هذه الكلمة :

« إننا فى نشرنا الأشعار التالية ، نشهد القراء مرة أخرى على ما نصدر عنه من روح سمجة تعطف على التجارب والمحاولات ، فى شتى الاتجاهات . ولذى نحسبه فى هذه الأشعار جديراً بالاهتمام ، هوتلك المكاشفة الفياضة العجيبة حتى فى عنفها ، عن نوبات الاستضعاف وخور العزيمة ، وأزمات الألم النفسى ، التى لايسعنا - وإن كنا لانشاطرها ولا نناقشها - إلا الحرص على معرفتها بوصفها سمة من سمات عصرنا » .

ولقد قوبلت هذه الأشعار من الكثيرين بالاستنكار لما اتسمت به من الجرأة فى التفكير ولطبيعة الموضوعات التى تناولتها ، ولكن المؤلف جنى من وراء هذا الاستنكار مزيداً من لفت الأنظار ، وتوطيد دعائم الشهرة . فإن أهل الأدب وخاصة القراء وجدوا فى هذه الأشعار أصدق البشير على مطلع شاعر مبتكر قدير .

وبعد أشهر قلائل وجد بودلير آخر الأمر ناشراً لديوانه بعد أن طال عرضه دون طائل على أكثر من ناشر ، وكان هذا الناشر ذلك الصديق المغامر «أوجست يوليه مالاسيس Auguste Poulet-Molassis» الذى خلف أباه فى مطبعته ، وحده ذوقه الفنى ومشاربه الأدبية إلى أن يعمل على نشر بعض أعمال الشباب من أصدقائه البارزين ، وكان بودلير فى طليعة من اتصل بهم ، عارضاً عليه طبع ديوانه ، فبادر بالقبول ، غير حافل بقله ما يحققه ذلك العرض

من الناحية المالية ، لاهتمامه أن يرى عمله مطبوعاً بحروف جميلة على ورق جميل ، مع توفر الاتقان فى فن الطباعة ، وهى كلها مزايا ليس له بها سابقة عهد . ولكن الديوان لم يظهر إلا بعد خمسة شهور من دفعه للمطبعة ، وذلك أن الشاعر - على الرغم من أنه لم يدفع الديوان إلى الطبع إلا بعد معاودة النظر فيه وتحوى التدقيق والتنميق ، لم تكن تخلو تجارب الطبع من تعديلات يدخلها عليها حتى اللحظة الأخيرة . ولقد صدرت هذه الطبعة الأولى للديوان مشتملا على مائة قصيدة فى يولية عام ١٨٥٧ فكان فى العنوان نفسه « أزاهير الشر » ما يكفى للاستغزاز إلى حملة شديدة الوطأة من جانب الناقدن المفكرين ، ولم يطل انتظار هذه الحملة فقد نشرت صحيفة « الفيجارو le Figaro » مقالا شديداً ، وفى أثره كانت إقامة الدعوى القضائية التى أحالت بودلير على الفرقة السادسة التأديبية التى أدانت الشاعر بتهمة الإساءة إلى الأخلاق والآداب العامة ، وحكمت عليه بدفع غرامة قدرها ثلاثمائة فرنك مع مصاريف الدعوى ، فضلاً عن حذف بعض الأشعار التى خصتها المحكمة بالذكر وعددها ست قصائد يجدها القارئ اليوم فى الديوان تحت عنوان خاص بها وهو « القصائد المحكوم عليها » .

وفى فبراير عام ١٨٦١ ظهرت الطبعة الثانية من « أزاهير الشر » عند الناشر نفسه Poulet-Malassis وهى آخر طبعة أعدّها الشاعر نفسه ، وصححها وأضاف إليها بدلا من القصائد الست المحذوفة خمسا وثلاثين مقطوعة جديدة أكثرها من غرر ما نظم . وقد ظهرت هذه الطبعة بعد عام من وفاته بعناية اثنين من أصدقائه مشتملة على مائة وأحدى وخمسين مقطوعة . ومنذ ذلك الحين أخذ يزايد تهافت دور النشر الكبرى على نشر طبعات كاملة لمؤلفاته مع التقديم لها بمختلف الدراسات قديمة أو حديثة مع شتى التعقيبات والحواشى المفيدة ، كما ظهر ما لا حصر له من الطبعات الخاصة

بديوان «أزاهير الشر» وحده مستقلاً بنفسه ، قائماً برأسه ، وهذه الطبقات بعضها مزدان بالصور ، وعلى ورق صقيل وفي إخراج موقر جميل .

ولانحتاج إلى القول بأن قراء العالم الحرحين يتصفحون اليوم «أزاهير الشر» يجدون في ذيلها تلك القصائد الست التي خلت منها أكثر من طبعة في عهد نابليون الثالث ، فلم تلبث بعد ذلك أن رد إليها اعتبارها وأن احتفظ لها الناشرون بعنوان «القصائد المحكوم عليها» وربما كان ذلك ترويحاً لها ، ولكنه على كل حال تنبيه إلى أن كل مصادرة الحرية الفكر تنتهى دائماً بانطلاق الفكر من رتبة الأسر وانتصار الحرية .

قيمة شعر الديوان وخصائصه

من العسير أن نحدد في بضعة سطور ما تنطوى عليه «أزاهير الشر» من قيمة عظيمة . فإنه يلوح مما جرى عند صدور الديوان عام ١٨٥٧ أن تحامل خصوم الشاعر من ناحية ومحابة أصدقائه من ناحية أخرى قد حالاً دون استجلاء المعاصرين لهذه الأشعار على حقيقتها . فإن عنصر الإثارة الذي استنكره فريق ، وتحمس له الفريق الآخر ، سواء أكان عنصر الإثارة تلك الصور الموغلة في الواقعية ، أو تلك المبالغات وغرائب الخيالات الرومانتيكية — ليس هو جوهر بودلير الإنسان . كذلك ما كان مبعث الإعجاب لدى هذا الفريق أو ذاك ، سواء أكان شدة البريق في بعض الصور ، أو متانة الصياغة في بعض الأبيات ، هذا أيضاً ليس هو جوهر بودلير الفنان . فالواقع أن بودلير الإنسان والفنان بقى مجهولاً سنين عديدة ، وذلك أن بودلير كان هدفه الأكبر التعبير عن الحياة الإنسانية في حركتها الإيقاعية خارج الزمان والمكان والملابس ، وبعيداً عن أواسط الناس ومواضع المدنية والأهداف النفعية .

والناظر في شعر الديوان لا يخطئ خصائصه ، ولكننا قبل ذكر هذه الخصائص نود التنبيه إلى أن بعض هذه الخصائص قد يبدو في ظاهره زيفاً تسهل محاكاته . ومن ذلك ما اصطلاح النقاد على التنبيه عليه والإشارة إليه باسم «الإبليسية Satanienne» بسبب ما يعمد إليه بودلير من استحضار إبليس في الكثير من أشعاره في صورة يجمع فيها شاعرنا الفنان بين التهويل المصطنع والجد العميق ، ويمزج فيها بين شعوره في حضرة إبليس بالإعجاب وإحساسه بالعذاب . ولكن أكبر الظن أن بودلير كان يرى في تمرد إبليس صورة من تمرده الذي يعزبه منذ صغره . وفي قصيدة «المتنرد Rebelle» شاهد على ذلك :

«انقبض الملاك المنتقم من السموات العلا
كالنسر الكاسر
«وأمسك بمجمع يده القوية شعر المللحد الكافر
«وقال وهو يهزه هزاً عنيفاً إنى على خبرك ساهر
«اتبع الشر كذا أريد»
«وأنحي الشيطان بكل قوته الجبارة — والعقاب
بقدر الحب —
منكلاً أشد النكال بهذا المتنرد على طاعة الرب
«والمتنرد وسط النكال الشديد
«لا يفتأ يتلوى ويصيح : لا أريد»

ولكن المحقق على كل حال أن العناصر عند الشاعر لم تكن مجرد زيف متعمد أو مخرفة فنية مقصودة بل هي جميعها في واقع الأمر داخلية في طبيعته المركبة ونفسه المتضاربة بوصفه ممثلاً لداء العصر في النماذج البشرية المثقلة للأزمة الحديثة .

ونذكر في مقدمة مانحن موردوه من خصائص شعر بودلير «الزعة الحسية le sensualisme» حيث يرى القارئ تسلط المحسوسات على الشاعر واستبدادها به واستبلاءها عليه ، على نحو مبالغ فيه ، وفي شدة

فراء الشعر عامة وعنوانها «التجاوب Correspondance»
وهي من الشواهد ذات الدلالة على أن شاعرنا كان
من الملهمين الأوائل لما جاء بعده من الاتجاهات
الرمزية في مضامينها المعنوية :

« مثلُ الطبيعة مثلُ معبدٍ تكتنفه أسرار الدين
تصدر عن عُمدِ الحية حيناً بعد حين
« زمزمة وأصواتٌ شتى مبهمة
« ويجوس منه الإنسان في غابات من الرموز
« تراعيه بالنظر الغريب الأليف
« ومثلما تختلط الأصداء المديدة من بعيد

« في وحدة غامضة عميقة
« لها راحةُ النهار وراحةُ الظلام
« كذلك في معبد الطبيعة

« تتجاوب العطورُ والألوانُ والأنغام

ومن خصائص بودلير في الكثير من شعر ديوانه
ولعه بالغريب ولماً ليس بالزائف ولا السطحي ، بل
هو على العكس من ذلك ولع عميق عريق متأصل
الجلور في قرارة نفسه . وقد ساعد على إظهار هذا
المزاج الطبيعي فيه تلك المرحلة البحرية التي قام بها على
غير رضاه في أيام صباه على مركب تجارى حول القارة
الإفريقية وفي المحيط الهندي ، ومقامه تلك الأيام
القاتل في جزيرة موريس ، فهو على ماله من هذه
الرحلة واستعجاله العودة إلى باريس رسبت منها في
نفسه ، من حيث لا يشعر ، انطباعات تلك الرحاب
اللانهاية من الماء والسماء ، وهذه الحركة الربية من
الأمواج المطردة في البحر الرجراج ، ثم حياة الموانئ
بما يزدحم فيها من الأفواج من شتى الأجناس ، غربي
الأزياء والعادات ، مختلفي الألوان والسمات ، فضلاً
عن شعور التفرد والحد في تلك المناطق الاستوائية
الحارة بشمسها الساطعة ولباليها الصافية الساحرة المتألثة

وعق لا تجددها عند غيره . ثم إنه ما من نوع من أنواع
الحسية ألا وتلقى الأمثلة عليه في شعره المنظوم المنشور
نثمة « حسية النظر » في قوالب الأجسام ، ومراتب
الألوان ، والتقاط السمة الخاصة في كل مشهد طبيعي
أو اصطناعي بحيث تغنى السمة الواحدة في استحضاره
بأقل ما يمكن من النعوت المطابقة والكلمات المعبرة
وثمة كذلك « حسية الشم » على الخصوص ، فقد نظم
الشاعر في وصف إحساساته بأنواع العطور الناعمة والطيب
الفاغمة مقطوعات كثيرة خصتها بها وقصرها عليها ،
وكلها عميقة دقيقة نافذة مسكرة وفيها إلى عناوين بعض
هذه المقطوعات :

« القارورة le flacon » « العطر le parfum »
« تريلة hymne » ، « الشعر la chevelure » وحسبنا
أن نستشهد هنا بهذه الأبيات :

يا لشعرها ! يا لعطرها !

« يا له من عبير مُشبعٍ بالفتور

« لئن هفَّتْ سائرُ النفوس مع موسيقى النغمات

فلن رُوحى - يا حبيبتى - تسبح من عطرِكَ في غمرات

« شرك الأنيثُ الكثيف

« ذو العبير الفاغم الحادِ

« كبحرٍ من العطر رجراج

« أمواجه من زرقه وسواد

...

على جسديك يحوم العبير

« كما يحوم حول المحمرة مُتصاعدُ البخور

ثم حسية السمع ، وهذه قلما تجددها عنده إلا بمزوجة
بغيرها من المنظور والمشموم . والواقع أن شاعرنا يمزج
دائماً بين هذه المحسوسات الثلاثة « العطر والنغم واللون »
وهو يذكرها أكثر ما يذكرها بهذا الترتيب مقدماً
العطر على الجميع . وفي التجاوب بين هذه المحسوسات
الثلاث نظم شاعرنا مقطوعة من أبدع آياته وأشهرها عند

وكذلك يتعين علينا أن نذكر من عناصر «أزاهير الشر» النزعة التشاؤمية . ومردّها عند بودلير - على الأرجح - ما يكابده من الشوق اليائس إلى العقيدة الفقيدة ، فتراه في الحين بعد الحين وفي أكثر من مقطوعة متطلعا لها كالمثلهف عليها ، ولكنه كلما جد في طلبها زاد ابتعادها وقام سلطان الليل لا غالب له ، يضرب من دونها غياهبه «على حد قوله» الأصيل الرومانتيكي «coucher de soleil romantique» وهكذا لايفتأ الشاعر تتداول عليه نوبات التوقع والأمل ، تعقبها على الدوام أزمات الخيبة والخذلان ، وطبيعي أن ينشأ عن ذلك ما كان عليه من الحالة النفسية التي تنسم بالشك ويعتورها القلق ، ويرين عليها الفتور في الهمة والشعور بالفشل ، وما يؤديان اليه من الملل حتى كادت كلمة الملل ومشتقاتها تتردد كالترجيع في كل قصيدة سواء كان يتحدث عن الشاعر في قصيدتي (الدمار Destruction) (والبركة bénédiction) أو عن القارئ في قصيدة (مقدمة préface) أو عن القمر في قصيدة (le possédé) من لابس جسده الجن ، أو عن اللذة التي يقول عنها في قصيدة (الرحلة le voyage) نورد فيما يلي سبيل المثال :

« ولكيلا يفوتنا من الرحلة ذكر ماله أكبر الخطر
 « لكيلا يفوتنا ذكر ما رأيناه حينما اتجه النظر
 « ومن غير تكلف للبحث واستقصاء الخبر
 « وعلى التفاوت المحتوم في الدرجات بين البشر
 « نذكر ذلك المنظر المسوم من فرط ما هو شائع دائم
 « منظر المعصية المتكررة منذ سقطة آدم »

فلا عجب ، وهذا شأن بودلير من الحياة كلها ، أن تستولى عليه السآمة ، حتى يقول في مقطوعة «القناع le masque» إنه لا يأسف على شيء أسفّه على أن يأتي عليه الغد ، فيزيد حياته يوماً آخر دون قصد . وهكذا كان عكوف الشاعر على التفكير في الموت . ولم يكن

بالتجوم البادية للعيون كبيرة دانية ، ومانخرجه الأرض من النباتات الباسقة والشجيرات المتلوية والأزهار المستوحشة وقد تضوعت من هذه جميعاً روائح مبهمة فائحة ، وما يعمر تلك البلاد النائية ، ويسعى في مناكبها من الشخوص السمر القانعة الراضية وهي رائحة غادية ممشوقة القوام نصف عارية مؤتزرة بالأزرق ذات الألوان الزاهية فضلاء عن بيوت الأصنام العجيبة وتهاويل الآلهة الممسوخة المعبودة . فلما عجل الشاعر عودته وشاءت إرادة القضاء أن تقع نظرتيه في باريس على جان ديغال الخلابة تحرك حنينه إلى الطبيعة في تلك الآفاق البعيدة ، وخرج علينا الشاعر من ذلك بمقطوعات غرامية امتزجت فيها هذه المرأة وتلك الطبيعة امتزاجاً جنونياً رائعاً منقطع النظير .

حين أكون في ليالى الحريف الدفيئة إلى قربك ،
 استنشق مغمض العينين شذى صدرك ،
 تراءى لي شواطئ سعيدة
 تسطع عليها أشعة شمس صالية متوهجة شديدة

هي جزيرة متفجرة كسلى
 حبها الطبيعة أشجاراً فريدة وثماراً شبيهة
 ورجالا أجسامهم ممشوقة قوية
 ونساء يخلبن اللب بنظرتهم الغنجة الناطقة

ويحملني شذاك إلى آفاق ساحرة
 فكأنني بمرقاً يحفل بالقلوع والصواري
 وهي لما تزل منهوكة من عراك اللعج
 وهذا أريج شجر التمر الهندي
 متضوعاً في الفضاء يفعم حسى
 ويمتزج بأغاني الملاحين في نفسى

« كذلك - يا ربتي الحبيبة ، يا ذات الطهر والصفاء -
على البقايا الداخنة من ليالى العريضة الحرقاء
« تهفو أمام عيني الشاخصة فى الفضاء
« ذكراك وضاءة زاهرة ساحرة بغير انتهاء

« فى وجه الشمس تصبح نيران الشموع كابية
كامدة

« كذلك ذكراك على الدوام ظافرة غالبية
« أيتها الروح المنيرة أيتها الشمس الخالدة !

وعلى الرغم من فشل بودلير فى هذا الحب
وابتعاذه عن أوحته وكانت عروس شعره فإن الشاعر
قد ذكرها بعد ذلك ذكر من يحبها على البعد ويرجو
لقاءها بالروح فى ملكوت الخلد :

« إلى أحب النساء ، إلى أجمل النساء
« إلى من ملأت قلبى بالضياء
« إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
« تحيى فى الخلد .

« إلى التى أشاعت فى حياتى
« روحاً كالهواء المنعش
« إلى التى فى كيانى المجهول من الفناء
« أفرغت طعم البقاء

« إلى نافحة للطيب الذكى
« تتصوع فى معهد الهوى العذرى
« إلى مجمرة متروكة يتصاعد منها البخور
« خفية تحت جنح الديجور

إمامه وهو يفكر فى الموت إلا أحد أمرين ، إما التقدم
إليه أو انتظار قدمه . وها هو ذا الشاعر لا يقدم على
الانتحار ، مؤثراً عليه الانتظار ، متحاملاً على نفسه
منطوياً على ألمه المتجدد على الدوام ، معتصماً بيبأسه
المتبلد من العقاقير فى بعض الأحيان .

بيد أن ذلك كله ، لم يطمس ما كان فى قرارة
نفسه من جوهر الروحانية ، يتصوعُ غيرها فى
« أزاهير الشر » تارةً قوياً فاغم العطر ، وتارة خفياً
مستكن النشْر . وتظهر هذه البقية من الروحانية حتى
فى شر أوضاعه وأحواله :

« كنت فى بعض الليالى مع يهودية نكراء
« وكأما كنت جثة ممدودة إلى جانب جثة
« فأنشأتُ قرب هذا الجسد المبذول
« أفكّر فى الجمال الحزين الذى حرّمته .

بيد أن هذا الشعاع الروحانى انبلج ساطعاً جلياً
كالفجر ، فيما نظمته حين عرف الحب بالروح
لا بالجسد .

وكانت عروس شعره فى هذا الطور الوجدانى
« مدام سابنيه » التى سبق لنا التعريف بها . فقد ظل
شاعرنا وهو فى درك الهاوية ، لا يكف مدى خمس
سنوات عن التطلع إليها ، مؤملاً الخلاص على يديها
متمثلاً فيها حين طلعت فى حياته « الفجر الروحى »
« حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر فى قلب الفاجر
« ومعه المثل الأعلى المنشود بوخزه الأليم الزاجر
« يفعل سرّه الخفى فعله النافذ القاهر

« وإذا السموات العلا الروحانية
« يفتح فلکها المكور البعيد المنال
« غائراً سحيقاً له مالهوائية من جاذبية
« للصريع الذى لا يزال متألاً حالماً بالكمال

« هيات أيها الحب النزيه الصريح
« أوفيك حقل من الوصف الصحيح
« يا حبة المسك الخافية الثاوية
« في قرارة نفسى الباقية

« إلى أحب النساء ، إلى أجمل النساء
« إلى التي كانت بهجتي وصحتي
« إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
« تحيتي في الخلود .

ولكن هذه الروحانية التي كانت تشب وتجو في
نفس بودلير ، وتظهر وتستتر في شعره ، تذكرنا
بذلك الصراع الأبدى بين الظلمة والنور ، سيان في
الكون الكبير أو في الكون الصغير ، خارج أنفسنا
أو في أنفسنا . ولقد كابد شاعرنا هذا الصراع منذ
حدائته إلى ساعة منيته ، وظل منه معذباً بالجدس
والروح . ولكن بودلير الإنسان والفنان كان يعرف
مدى ما أفاده من هذا الصراع ومقدار دينه لحنة
الأم ، في تعميق حسه وخلاص نفسه :

تبارك يارب سوط النقم

تبارك يا أبتاه الأم

فلم تك نفسى بين يديك

بالعبوة من هوانٍ لديك

تعاليت فيما اقتضت حكمتك

وقدست فيما ارتضت رحمتك

مكانة بودلير وأثره في الأدب

حين ظهر « ديوان أزهير الشر » قال كبير شعراء
العصر وقتئذ « فيكتور هيجو » عن صاحبه إنه أحدث
في الشعر انتفاضة جديدة . ولا نبالغ إذا قلنا : إنه لم
تنقض على وفاة بودلير عشر سنوات حتى أخذ يتأثر

الشعر الفرنسى كله تأثراً مباشراً أو غير مباشر بهذه
الانتفاضة التي سرت رجفتها إلى نخاع العديد من
الأجيال ، مع اختلاف في مدى الاعتراف بذلك التأثير
والتسليم به . والسبب في أن تأثير بودلير لم يظهر حتى
ظهوره إلا بعد وفاته ، يرجع إلى ما كان ينقصه من
الجرأة على فرض نفسه على من حوله من أبناء عصره ،
وإلى طبيعة رسالته الفنية التي كانت من العمق والصدق
غامضة متناقضة غير محدودة ، ومن ثمة لم يتح لشاعرنا
في وسطه أن يحشد تلك القوة المتولدة عن الإعجاب
والفهم ، ويخلق منها ذلك الجو الجماعى الذى يكفل
للفنان في حياته عصبية من الأنصار والمريدين المتأثرين .
وأياً كانت الحال ، فإن تأثير بودلير بعد وفاته كان
شديداً ، كما كان مطرد الزيادة . ويلاحظ أن تأثير
بودلير يتولد في النفوس خفياً أول الأمر ، وقد يظل
خفياً ، وعلى غير وعى من المتأثرين به بحكم كونهم
من متوسطى الذكاء أو بحكم شهرتهم التي تحول دون
اعترافهم بفضل بودلير عليهم ، ولعل أول من سيطر
عليهم بودلير حتى السيطرة وظهرت آثار تأثيره فيهم
ظهورها المبين هو الشاعر المشهور « بول فرين Paul
Verlaine » ، ومن عجائب الحياة أن هذا بعينه
ما جعله يقتصد في الكلام عن كان له القدوة والإمام ،
فلم يأت في وصفه - حين وصفه - إلا بالعبارات
المتبذلة على كل لسان : « كان بودلير كاتباً مبرزاً
وشاعراً كبيراً ، ولا حاجة بنا إلى مزيد من القول
لتوكيد ذلك . وإن النصاعة العجيبة في أسلوبه ، وشعره
البراق المتين السلس ، وخياله القوى النافذ التأثير ،
وفوق هذا جميعه تلك الحساسية المرفهة دائماً ، العميقة
في أغلب الأحيان ، القاسية في بعض الأحيان ، كل
هذه الصفات تكفل لشارل بودلير مكانه بين صفوة
مفاخر الأدب في زماننا ، مع استثناء بلزال Balzac ،
وفيكتور هيجو بطبيعة الحال .

وعلى العكس من ذلك كان موقف الفنى الشاعر
« آرثر رامبو Arthur Rimbaud » صديق فولين ، فقد
كان أول من حياً بودلير باللهجة التى تناسب عظمة
شأنه وحقيقة مقدرته ، فهو رب من الأرباب ، وأول
أهل البصيرة والكشف ، وملك الشعراء .

ونذكر من تأثروا بشاعرنا قطباً من أقطاب
الرمزية قبل هذين ، وهو : « أسطفان مالارميه
Stéphane Mallarmé » الذى يذكر قراؤه
— ولا ريب — بهذه المناسبة قصيدته « قبر شارل بودلير
Tombeau de Charles Baudelaire » بيد أن الرمزية
الغامضة عند مالارميه قد فتحت للكثيرين من الشعراء
بعده الطريق على مصراعيه لاتخاذ الرمزية وسيلة سهلة
ميسورة للتمويه على من يسهل التويه عليهم من القراء ،
باصطناع لهجة مبهمه يعتمد الشاعر فيها على تأثير كل
لفظ فى ذاته والجمع بين هذه الألفاظ فى تراكيب
تخلب القارئ وتروعه دون أن يحصل ما وراءها .
ولقد امتد تأثير شاعرنا بودلير رائد الرمزية من
حيث المضامين المعنوية إلى الكثيرين بعد هؤلاء ، سواء
جاء تأثيره مباشراً أو عن طريق هؤلاء أنفسهم . ولقد
نوه بهذا التأثير أكثر من ناقد شهير ، حتى من بين من
كان يغلب عليهم الفتور من ناحيته ، ومنهم « جيل ليمتر
Jules Lemaitre » الذى لم يسعه مع ذلك إلا أن يقول

« إن بودلير يتوفر لديه بقدر كبير ما ينقص غيره ممن
يكبرونه ويتقدمون عليه ، ونعنى به ذلك الإحساس ،
وذلك الاهتمام ، وذلك الفرع من السر الغامض الذى
يكتنفنا ... »

بيد أنه ليس هنالك أكثر دلالة على مدى تأثير
« بودلير » فى الزمن الأخير من كلمة للناقد الشهير
« برونيتير Ferdinand Brunetiere » أرسلها فى لهجة
حانقة كاللعنة الساخطة المحرقة . ونحن إذ نثبتها هنا ،
لانتبهنا من قبيل الموافقة ، بل باعتبارها — كما أسلفنا
القول — أقوى الشواهد الناطقة القاطعة على ما بلغه
شاعرنا من استفحال الشأن وغلبة السلطان فى الأزمنة
الحديثة .

« إن بودلير أحد الأصنام المعبودة فى هذا الزمن ،
وهو أشبه ما يكون بصنم شرقى ، فظيع شائه الصورة ،
وقد زاد فى شناعته الطبيعية ما أضفى عليه من الأصباغ
الغريبة . ومعبد هذا الصنم المعبود من أكثر المعابد
زحاماً .

والفكرة السائدة اليوم عند معظم النقاد أنه يمكن
القول ، مع بعض المبالغة أن الشعر الفرنسى فى جملته
يمكن تقسيمه إلى قسمين : ما قبل بودلير ، وما بعد
بودلير . وهذا غاية ما يمكن أن يقال للتعبير عما أصبح
لشاعرنا ، من المكانة والتأثير فى العصر الحاضر .